

البحوث النوعية: تكامل المنهج و ثراء المنتج

أ. د. عدنان ياسين مصطفى
أستاذ علم اجتماع التنمية/ جامعة بغداد

2022

حاولت العديد من الاختصاصات العلمية والمعرفية دراسة علاقات الانسان المتفاعلة مع البيئة الطبيعية والاجتماعية، وقد أظهرت تلك البحوث ضخامة التأثير الذي تمارسه الثقافة في جميع الامتدادات والمساحات الإنسانية. بل ان قناعة الكثير من المفكرين والباحثين والمختصين بشمولية هذا التأثير حد اعتماده منطلقاً ومنظوراً لتفسير مختلف المظاهر والتجليات والمشكلات والممارسات.

فالإنسان وفق هذه التصورات يحمل ذهنًا ثقافياً يتشكل ببطء عبر السنوات اليافعة من حياة الانسان ويكتمل عند بلوغه سن النضج، لذا صار بديهياً في العلوم السلوكية والاجتماعية والإنسانية التسليم بتعددية أنماط الفكر الإنساني كنتيجة طبيعية لاختلاف ثقافات الشعوب والمجتمعات. من هنا يأتي الاعتراف الأكاديمي الواسع بارتباط تركيب الشخصية بنمط الثقافة تاريخياً واجتماعياً.

انطلاقاً من هذه المعطيات والتصورات يصعب فهم علاقات الناس وسلوك الافراد إلا إذا حللناه في إطار القيم والمفاهيم المعرفية لسائدة في المجتمع. وهنا تترك البحوث النوعية بصماتها وتزداد أهميتها لسبر أغوار الكثير من المشاهد الاجتماعية والممارسات السلوكية والظواهر المجتمعية.

فالبحوث النوعية Qualitative Research في إطار هذه الحثثيات منهج علمي للملاحظة من أجل الحصول على بيانات غير رقمية، ويشير هذا النوع من البحوث الى المعاني والمفاهيم والتعريفات والخصائص والاستعارات والرموز ووصف الأشياء، ليس الى احصائها او قياسها، بل محاولة الإجابة عن الكيفية والأسباب الممكنة لحدوث ظاهرة معينة بدلاً من الإجابة عن عدد مرات حدوثها.

ثمة قضية أساسية تجدر الإشارة اليها في هذا الخصوص اننا نعيش في مجتمعات تقليدية اصيلة (Genuine Society) تتميز بعمقها الحضاري وجوهرها القيمي وامتدادها الرسالي، وهو ما يضيء عليها سمات وخصائص لا تظهر للعيان. فيها عمقاً أنطولوجياً كما عبر عنها عالم الاجتماع باسکر¹. في هذا النمط من المجتمعات الاصلية المتكافلة فيها مستويات من الوجود تحت ما يظهر على السطح أبعد مما يبدو للعيان، وهذه المستويات التحتية ذات أهمية خاصة للمعنيين بالبحوث النوعية لأنها تستطيع ان تفسر ما هو بادي لنا. ولعل من خصائص الأشياء والظواهر الاجتماعية انها تتناسل من بعضها فتتراكم قيمها وتتضاعف تأثيراتها وامتدادات فعلها.

¹ -أيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابر ماس، ترجمة محمد حسين غلوم، سلسلة عالم المعرفة العدد 244، 1999، ص43.

هذه التصورات تدفعنا للإشارة الى رؤية عالم الاجتماع سي رايت ميلز C. W. Mills في كتابه الخيال السوسيولوجي (Sociological Image) الذي يؤكد ان التصدي للموضوعات والبحوث النوعية تستدعي -ضرورة تسليح الباحث بما أسماه" الخيال العلمي الاجتماعي "حتى يتسنى إدراك أبعاد المجتمع وقضاياه، فهذا الخيال قادر على أن يساعد الباحث في فهم أن الفرد جزء من بناء اجتماعي، وأن البناء الاجتماعي جزء ومرحلة من مراحل التاريخ، وبالتالي إدراك سياق المشكلات، وباعتباره سياقاً بنائياً وليس فردياً أو شخصياً ذاتياً².

وهنا توظف مداخل البحث النوعي عبر العديد من التخصصات الإنسانية والأكاديمية، إذ تركز تحديداً على العناصر البشرية للعلوم الطبيعية والاجتماعية. وتشمل مجالات التطبيق البعيدة عن السياقات الأكاديمية، مثل أبحاث السوق النوعية والقضايا التجارية والخدمات التوضيحية التي تقدمها المنظمات غير الربحية والصحافة وغيرها.

تعتمد المداخل النوعية بوصفها مجالاً للدراسة على مفاهيم ومناهج البحث وأدوات وآليات في المجالات الأكاديمية التي لها باع طويل في سبر أغوار القضايا والمتغيرات المجتمعية والاقتصادية والثقافية.

ولعل من المهم الإشارة هنا ان هدف المشروع النوعي يختلف باختلاف الخلفية التخصصية مثل سعي عالم الاجتماع الفهم للمتغيرات المجتمعية في ظروف الازمات والتحول والأسباب التي تحكم مثل هذه المتغيرات والتداعيات على الامن الإنساني للفرد والمجتمع.

وتعد المناهج النوعية الأفضل في بحث العديد من مسائل التجربة البشرية في جوانبها الوصفية والتفسيرية، وفي اتخاذ القرار على سبيل المثال (ليس فقط من، أو أين أو متى) يهدف الى فهم أفضل للبرامج الاجتماعية والحكومية.

لقد كانت بواكير العمل بهذا المنهج في توجهات المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية في القرن التاسع، اثناء الحقبة الاستعمارية، حث أسهمت البحوث النوعية (الانثروبولوجية) في تقديم الكثير من الحلول لوزارة المستعمرات البريطانية ومن أشهرها حادثة الكرسي الذهبي لمجتمع الاشانسي في افريقيا، بعدم احتدام المعارك مع سلطات الاحتلال ودخول أستاذ كرسي الانثروبولوجيا ايفانس برباد E. Brichard الى المجتمع والإقامة فيه ودراسة خصائصه وتقديم تقرير الى وزارة المستعمرات البريطانية آنذاك وحل المشكلة في حينها.

² -عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، العدد 44، أغسطس 1981، ص227.

ومنذ ذلك الوقت أسهمت الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية في المدرسة البريطانية وبعدها تحولت الى الولايات المتحدة الامريكية وازدهرت بما يسمى مدرسة الانثروبولوجيا الحضارية بتقديمهم عالم الانثروبولوجيا رالف لنتن (R. Linton). ومنذ ذلك الوقت اتسعت مساحة الحث في الدراسات النوعية لدى الكثير من الباحثين في مجال العلوم السياسية والاجتماعية والتربية والاعلام وغيرها.

القضية الأهم في مناهج البحوث النوعية انها تتكامل وتتساند مع معطيات الدراسات الإحصائية (الكمية) حيث تساعد في تقديم تفسيرات معينة لظواهر ومشكلات وقضايا مدروسة (كجوانب الدراسات الانثولوجية والاثنوغرافي، او البرامج الوطنية والمحلية التي تقوم بتطبيقها الحكومة). وفي كثير من الأحيان تعد الاستنتاجات العامة مجاوزة لسياق الدراسة لعدم حصول بعض القضايا العامة على أساس النظرية الإحصائية. وبناءً على هذه المعطيات يتطلب من المناهج النوعية توفير أدلة وتبريرات رياضية لمثل تلك الفرضيات لتقديم مزيد من البحث والاستقصاء.

وبالمقابل قد يحتاج الباحث النوعي بأن فهم الظاهرة او الموقف او الحادثة لا يأتي إلا من خلال استكشاف الموقف الكلي بتداخلاته وامتداداته كالمداخل الظاهرية او الوظيفية البنائية او التفاعلية الرمزية لتصل في النهاية وفي معظم الأحيان الى معطيات مهمة من البيانات الصادقة لنموذج غير رقمي.

وفي كثير من الأحيان قد يبدأ مشروع البحث النوعي كمدخل للنظرية في الوقت الذي لا يوجد فهم مسبق للظاهرة وتجلياتها عند الباحث، وربما يشرع الباحث في الدراسة من خلال القضايا والمقترحات والتوصيات المطروحة للتحرك بصورة علمية وتجريبية أثناء مسارتطبيق البحث واعداه بصورة علمية.

وفقاً لآراء مجموعة من العلماء مثل بوجدان وتايلور 1990، يمكن التمييز بين أولئك الذين يتبعون منطق المناهج الكمية في تطبيق بحوثهم ودراساتهم وفق قواعد ومعايير علمية معتمدة يتبعها القيام بتعميمات بالمعنى الرقمي (من حالات عديدة الى حالات أوسع عدداً ونطاقاً)، وهناك من يتبع مسار علمي ومناهج نوعية، لا تعتمد في جوهرها وتفسيراتها وتحليلاتها وتعميماتها على المعطيات الإحصائية بتكرار حدوث ظاهرة اجتماعية او سلوكيات وممارسات معينة، بل يركز منطق التعميم من الحالات الفردية كالسيرة الشخصية او المنظمة، او ظواهر تتجلى في وسط معين او حالة ظاهرة اجتماعية، يصبح المرتكز الأساس فيها على التوصيفات المجهرية المكبرة للظاهرة التي يهتم بها الباحث والمجتمع وربما راسم السياسة وصانع القرار لرسم مسار علمي او تنموي يخدم المعرفة والمجتمع.

ولعل من اهم المناهج العلمية المستخدمة في العلوم الاجتماعية بشكل عام والبحث النوعي بشكل خاص منهج دراسة الحالة، حيث يتم فحص عينات هادفة بتمعن وعمق وتدقيق لتحقيق فهم أفضل لأبعاد الظاهرة وامتدادات وتداخلاتها على سبيل المثال (الإدمان على المخدرات، الجرائم والانحرافات السلوكية وحالات التشرد وغيرها). وهذا المنهج غالباً ما يعبر عن تفضيل الباحثين للعمق وسبر أغوار المشكلة للوصول الى تفاصيل تفسر ما هو ظاهر في سياق البيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها، وهي بالأساس عينات صغيرة ونوعية أكثر تركيزاً مقارنة بالعينات المعتمدة من قبل الباحثين الإحصائيين، وهم في أكثر الحالات يسعون الى ما وراء القوانين العامة.

ومن خلال التجربة الشخصية في اعداد الدراسات والبحوث على المستوى الوطني كتقارير التنمية البشرية او دراسة ظواهر اجتماعية خطيرة مهددة للأمن الوطني كدراسة مشكلة المخدرات والجرائم الخارقة للناموس الاجتماعي (زنا المحارم واغتصاب الأطفال)، أسهمت العينات النوعية (المجموعات البؤرية والمقابلات ودراسة الحالة) في إنضاج التفسيرات العلمية وتعزيز مصانيتها وعمق تحليلها ودعم مؤشرات البيانات الإحصائية المستخلصة من الاستبانات.

وعلى امتداد مسيرة البحث العلمي ظلت المناهج النوعية عنصراً مكملاً لزوايا التحليل الخمسة التي غالباً ما تتبناها منهجية بناء البيانات، وهذه المناهج تستخدم جنباً الى جنب مع الخطوات والمسارات المستخدمة في المناهج الكمية والفصول الدراسية وفي مراجعة المواد العلمية والمقابلات وإدارة الحوارات في المجموعات البؤرية باعتبارها منهجية متعددة الابعاد (Multi-Dimension) والأدوات والوسائل لجمع المعلومات وتحليل البيانات بحثاً عن الحقيقة.. حيث يسعى الباحث الذي يعتمد المنهج النوعي باستمرار الى استكشاف المشهد غير المتجانس للبحث النوعي، وهنا ربما يرفض الباحثون في هذا المنهج نماذج الصدق الخاصة في العلوم الطبيعية ويميلون الى الاستقراء.

تتنوع أدوات البحث النوعي لتشمل المقابلات المعمقة والمجموعات البؤرية والمقابلات والملاحظة، والملاحظة بالمشاركة والبحث الاثنوگرافي وتحليل المضمون وبحث دراسة الحالة التي غالباً ما تستخدم فتكون نتائجها أكثر وصفية. إذ يفضل الباحثون في الحصول على البيانات من خلال الكلمات والصور والممارسات والسلوكيات التي تستمد بشكل طبيعي ونموذجي (الملاحظة والمشاركة والتجريب العملي مقابل التجريب).

لقد شكل المسار التطوري لهذا المنهج بدايات علمية استمدت من الواقع الميداني عبر الدراسات والبحوث الانثروبولوجية والإقامة الميدانية والمشاركة الفاعلة في مجتمع الدراسة لمجتمعات صغيرة الحجم وقليلة العدد، فهذا المنهج قديم جديد في آن واحد، تطور هذا المنهج عبر حلقات ومحطات معرفية ليتسع في تفرعاته وادواته ليشمل الجوانب التربوية والصحفية وغيرها.

لقد بات هذا المنهج من المرتكزات الرئيسة في دراسات وابحاث المعاهد الوطنية والقومية للإعاقة والبحوث الجنائية والاجتماعية التي تهدف الى إعادة تأهيل المجتمع وتحقيق الاستقرار للحياة الاسرية والمجتمعية عبر استخدام هذا التنوع الواسع من أدوات المعرفة.

لقد أثرى الاستخدام المكثف للبحوث النوعية النتائج الميدانية والمشاريع البحثية والتقارير والخطط والاستراتيجيات الوطنية من خلال مجموعات التركيز ومقابلات الرواد الأساسيين، وغالباً ما يستخدم أسلوب المجموعات البؤرية التي يتولى تسهيل المناقشة مشرف يدير الحوارات ويسهل المناقشات بصيغة عصف الأفكار (Brain Storming) حول موضوع او قضية معينة، وتسجيل هذه الحوارات والمناقشات في الفيديو او التسجيل الصوتي، حيث يكون محور اثراء لكل البيانات والإحصاءات والنتائج التي يسعى المشروع للوصول اليها.

كما يستخدم البحث النوعي في بحوث السوق من خلال الحصول على المعلومات والبيانات عبر التواصل المفتوح، ومن خلال المحادثة التي يسعى البحث النوعي لا الى معرفة طريقة تفكير الناس، بل يمتد لتحليل لماذا يفكرون بهذه الطريقة. إذ تسمح هذه المنهجية التعمق في عملية التقصي، وربما استجواب المستجيبين في ضوء ردودهم، حيث يسعى الباحث جاهداً الى فهم أحاسيسهم ودوافعهم ومعرفة توجهاتهم وطموحاتهم.

وهنا تتشكل الصورة الكاملة للمشهد الذي يسعى الباحث الى سبر اغواره عبر مناهج العلوم المتكاملة. وبناءً على ذلك، تكون البحوث النوعية معبرة عن تكامل علمي ومعرفي مع المناهج والطرق الأخرى، لتقدم للقائمين بالبحث مادة ثرية وغزيرة في المعلومات والبيانات التي تغني وتثري المنتج البحثي.

وختاماً نقول، مع حاجتنا المتصاعدة للبحث العلمي للتخطيط لحياة أفضل، ولمواجهة المشكلات والمتغيرات المتسارعة، فلا غنى لنا عن البحث العلمي النوعي الذي يهدف الى اثراء العلم بالحقائق والنظريات، والذي يهيئ لنا فرصة المساهمة الإيجابية مع العالم لإقامة مجتمع المعرفة. والبحث النظري

الى جاني قيمته النظرية، لا يعيش منعزلاً عن الجانب العملي، ولا يمكن ان ينفصل عن التطبيق. فعن طريقه يستطيع الباحث ان يستنبط المبادئ والقوانين المنظمة لظواهر الحياة؛ وبمعرفة القوانين يستطيع الانسان ان يتنبأ بما حدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة. وبتطبيق القوانين يستطيع الانسان ان يساهم في حل المشكلات الاجتماعية، ويتحكم في ظواهر الحياة لخدمة الإنسانية جمعاء.